

من الأصول الفكرية لمفاهيم التداولية

From the foundations of thought on pragmatic concepts.

عبدالفتاح دبابز¹، عبد الرحمن بن شويحة²dabbazabdelfattah¹, Abderahmane BENCHOUHA²¹ جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر).² جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر).

البريد الإلكتروني: dabbazabdelfattah@gmail.com

a.benchouha@lagh-univ.dz

تاريخ النشر: 2025/06/04

تاريخ القبول: 2025/06/02

تاريخ الإرسال: 2025/05/29

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى معرفة المرجعية الفكرية للسانيات التداولية، فهي من أحدث الاتجاهات اللغوية التي ظهرت وازدهرت على ساحة الدرس اللساني الحديث والمعاصر؛ إذ بعدما كانت اللسانيات تقصر أبحاثها على الجانبين البنوي والتوليدي؛ فتهتم بدراسة مستويات اللغة وإجراءاتها الداخلية، لكن بالتركيز على جانب مدى قدرة المرسل على ذلك في بناء النص، وكذا وصف النظام اللغوي وتفسيره، ودراسة الملكة اللسانية المتحركة .

كما يبين معالجة اللسانيات التداولية ما يسمى بـ " لسانيات الاستعمال " والذي جعلها أكثر دقة وضبطا، حيث تدرس اللغة أثناء استعمالها في المقامات المختلفة، وبحسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين. الكلمات المفتاحية : التداولية؛ الاستعمال؛ السياق؛ المقام؛ الخطاب.

Abstract:

This research aims to know the intellectual reference of pragmatic linguistics, as it is one of the latest linguistic trends that have emerged and flourished in the field of modern and contemporary linguistic studies. After linguistics had confined its research to the structural and generative aspects; It is interested in studying the levels of language and its internal procedures, but focusing on the aspect of the sender's ability to do so in building the text, as well as describing and interpreting the linguistic system, and studying the controlling linguistic faculty.

It also shows the treatment of pragmatic linguistics, the so-called "linguistics of use", which made it more accurate and precise, as the language is studied during its use in different denominators, according to the purposes of the speakers and the conditions of the addressees.

Key words: *deliberative; usage; Context; denominator the speech;*

1 مقدمة:

لقد ظلت العلوم اللسانية الحديثة محل جدل بين رافض لها كلية، ومؤيد لها جملة، ومفصل في أمرها بقبول حسنيتها ورفض ما لا يوائم فكرنا اللغوي عن طريق التأصيل لها من التراث، ومن ثم تداولها بمصطلحات توافق العصر دون إخلال للمعنى، ومنها علم التداولية.

وإشكالية البحث تنطلق من أن التداولية تجمع بين :

1- دراسة استعمال اللغة: فلا نتجاوز العُرف اللغوي من مثل مراعاة التراكيب التي كالكلمة الواحدة، كالشرط وجوابه في الجملة الشرطية، ومثل لفظ " هلم هو جمع بين " ها " ولم، وتاء الضمير مع الفعل الماضي، ومن أجله منعوا توالي أربع حركات وهكذا .

2- والعلاقة بين المتكلم والمستمع: فهي علاقة في غاية الدقة والتحرز من أجل تحقيق تواصل سليم مستقيم، فتشمل شروطاً وخطوات، من شرط الإفادة بين المتكلم والمستمع، وشرط صحة الوضع في لغة المتكلم والمستمع، و شرط السلامة اللغوية في الأداء الصوتي أو الكتابي، ومن خطوات حضور الفكرة المراد الكلام عنها، ثم الاختيار للعبارات المناسبة لمقام المستمع أو القارئ ومستواه العمري والثقافي.

ويتلخص ذلك في دراسة العلاقة بين المتلفظ والمخاطب. فإلى أي مدى تستطيع التداولية تحقيق هذه الغايات بين مختلف التخصصات اللغوية والأدبية؟ علما أنها جزء هام من اللسانيات.

و سبب اختيار الموضوع ملاحظة التشابه بين مصطلحات التداولية وفروع من علوم اللغة العربية، كأحكام المقام في البلاغة والسياق في بيان متأخر في اللفظ في القضايا النحوية، والمستعمل في الكلام العربي بصيغ صرفية، ومعان مأخوذة من اللهجات.

وأهداف الدراسة هي إبراز أهمية السبق لعلماء التراث العربي في مجال الدرس التداولي؛ تأصيلاً وتفعيلاً وذلك من خلال :

-التأصيل للفكرة التداولية من خلال التراث العربي.

—الربط بين العلوم اللغوية وغير اللغوية الجامعة لفكرة التداولية، وتخليصها فيما اشتركت فيه من العلوم الثلاثة الدلالة والبلاغة(مقام الحال) ، والمقام الاجتماعي.

— إبراز أهمية سبق علماء التراث العربي في مجال الدرس التداولي، من خلال تطبيقات وفق مستويات اللغة.

—إبراز العلاقة بين التداولية ومختلف المجالات المعرفية الأخرى؛ في التعريفات والحدود والفهوم والمصطلحات.

ولهذا جاء منهج الدراسة هو المنهج الوصفي بأداتي التحليل والمقارنة.

وجاءت حدود البحث منحصرة في بيان المرجعية الفكرية للتداولية واستمداداتها من العلوم.

وحوّت خطة البحث على مقدمة ثم مبحثين في كل منهما مطالب، وينتهي بخاتمة.

-2- المرجعيات الفكرية والفلسفية للتداولية:

إن الباحث عن المرجعية الفكرية لموضوع التداولية، لا بد له من المرور ببدايات هذا العلم في الدراسات الغربية، حيث ظهر ونشأ نتيجة البحث عن ملابسات الخطاب خارج مكوناته اللفظية، من المقام والسياق والحال والذي يجمعها لفظ الاستعمال، ومن ثم التعرّيج إلى أصول التداولية في التراث العربي وطرق إظهارها في الدرس اللساني العربي الحديث، ولهذا لا بد للبحث من مطلبين مهمين:

الأول:التداولية ومرجعياتها بين الاصطلاح والتعريف.

والثاني:المرجعية الفكرية للتداولية بين الفكر العربي والغربي.

-1/2- التداولية ومرجعياتها بين الاصطلاح والتعريف.

إن المتتبع لقضايا البحث اللغوي العربي القديم، والبحث اللغوي الحديث، يلاحظ الفوارق الفكرية في طرح القضايا اللغوية من حيث الخلفية الفكرية الراجعة إلى طبيعة الجنس والبيئة؛ فنجد الوضوح والظهور في الفكر العربي القديم، بل هو المطلوب سعياً إلى تحقيق البيان مضافاً إليه التبيين؛ بمعنى فصل كل عنصر الحديث عنه إلى درجة أنه صار من خصائص الشعر العربي الذي هو ديوان العرب وحدة البيت، وظلت هذه الفكرة راسخة حتى إن الجاحظ دعت هاته الفكرة إلى تسمية كتابه "البيان والتبيين".

أما الفكر اللغوي عند اليونان أرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة *Philosophia*، من جهة أن من تكلم في الفلسفة هم أنفسهم من تكلم عن اللغة، وتناولها من جهة الإجابة عن نشوء اللغة، والتفريق بين لغة الشعر ولغة النثر، وتقسيم الكلام وغيرها من المباحث، "وموضوع العلامة اللغوية، وقضية خصائص اللغة بين الإنسان والحيوان، وإشكالية العلاقة بين اللغة والفكر، وبين اللغة والواقع عند الفلاسفة واللغويين، وإشكالية نظرية المعنى وتداعياتها."¹

وإذا ما أوغلنا في أبعد ما وصلنا من أبحاث اليونانيين يعود إلى فترة ما يُعرف بالفلسفة الطبيعية أو ما قبل سقراط، وهي تمتد تقريباً من القرن السابع إلى القرن الخامس قبل الميلاد. ولم تكن الأبحاث بالمعنى الحديث، بل كانت محاولات لفهم الطبيعة والوجود والعالم بطرق عقلانية، بعيداً عن التفسيرات الأسطورية. وهي ما يُصطلح عليها فترة الفلسفة الطبيعية أو ما يُعرف بـ"الفترة ما قبل السقراطية" وقد مثّلت مرحلة انتقالية مهمة في الفكر الإنساني، حيث بدأ الفلاسفة اليونانيون الأوائل بمحاولة تفسير العالم من خلال مبادئ عقلية وطبيعية بدلاً من الاعتماد على الميثولوجيا.

من أبرز هؤلاء الفلاسفة:

- **طاليس الملطي (Thales of Miletus)** يُعتبر أول من حاول تفسير الظواهر الطبيعية بالاعتماد على عنصر مادي أولي، ورأى أن "الماء" هو أصل كل الأشياء².
- **أناكسيماندر (Anaximander)** تلميذ طاليس، اقترح مفهوم "الأبيرون" (اللامحدود) كمصدر لكل شيء، ما يمثل تفكيراً تجديداً متقدماً، "لا محدوداً ولا قابلاً للانقسام"³.
- **أناكسيمينيس (Anaximenes)** اعتبر أن "الهواء" هو العنصر الأساسي الذي يتكوّن منه كل شيء، وهو آخر فلاسفة الطبيعة⁴.
- **هيراقليطس (Heraclitus)** شدد على التغير والضرورة، وقال إن "النار" هي العنصر الأساسي، وإن كل شيء في تغير مستمر ("لا يمكنك أن تخوض في النهر نفسه مرتين") وهو من رواد فلاسفة العدد⁵.
- **بارمنيدس وزينون الإيلي**: طرحا مفاهيم تعاكس فكرة التغير، ورأيا أن التغير وهم، وأن الوجود واحد وثابت⁶.

هؤلاء المفكرون وضعوا الأساس لنمط تفكير علمي وفلسفي قائم على الملاحظة والتأمل العقلي، مما مهد لاحقاً لأعمال سقراط، أفلاطون، وأرسطو، الذين أسسوا تقاليد فلسفية أكثر تنظيماً وتأثيراً في تاريخ الفكر الغربي. "وربما كان أقدم ما وصلنا من أبحاث اليونانيين يرجع إلى حوالي القرن السادس قبل الميلاد على أيدي السوفسطائيين، وبعد ذلك نجد سقراط يدلي برأيه في بعض مشكلات اللغة، يليه أفلاطون "428 ق م إلى 348 ق م" وأرسطو "384 ق م إلى 322 ق م".

وربما كان من أهم المشاكل التي لفتت أنظار اليونانيين موضوع اللغة نفسها، وهل هي أمر طبيعي أو عرقي ناتج عن اتفاق البشر؟.

وقد خصص أفلاطون جزءاً من محاوراته لمعالجة هذه القضية وعرض وجهتي النظر المختلفتين، كما عالج أصل الكلمات أو موضوع العلاقة بين الاسم والمسمى⁷.

ومن المعلوم لنا جميعاً أنَّ علم اللغة الحديث علمٌ أوروبي، وقد تَوَصَّل إلى ما تَوَصَّل إليه من خلال دراسة اللُّغة اللاتينية القديمة، وما تَفَرَّع عنها من لغات أوربية حديثــــة، وعندما استوردنا نحن العرب - عني الأوربيين هذا العلم اللغوي الحديث كما نَسْتورد عنهم كل شيء، رُحْنَا نطبِّق على لغتنا العربية جَمِيع ما نادوا به من دون تفكير أو روية، فاعتقدنا في لغتنا ما اعتقدوه في لغتهم، وَسَرَى إلينا وَهْم انفصال العربية عن أي جانب ديني أو عقدي أو وجداني، فلم نعد ننظر إليها - كما كان يفعل علماءنا وفُقَهَاؤُنَا - بعَيْن القَدَاسَة والإجـلال أو بعَيْن التَّوقِير والإكبار، وَخَفَتْ إحساسنا الدِّيني بالعربية، واستَوَتْ عندنا هي وبقية اللغات؛ بل رجحت عليها - في حياتنا وسلوكنا - لغات؛ كالإنجليزية، والفرنسية... وغيرهما؛ لأنها لغات الأمم القوية المتحضرة.

وصرنا بوحى من هذا الوهم نَتَحَمَّس للعاميات، ونُقبل على درسها، وتَأصيل جذورها، ونعد ذلك درساً علمياً مجرداً، بل نعد العامية - في بعض الأحيان - لغة كالفصحى، بل محترمة مثلها؛ بل قد يكون الاشتغال بها ودرسها والكتابة بها أولى عند قوم منّا؛ لأنها اللغة التي يصطنعها الناس في شؤون حياتهم اليومية، وفتحت الأبواب بعد ذلك للأدب الشعبي على مصارعيتها، ولم يعد كثيرون يرون حرجاً في الكتابة بالعامية، ولم يعد اللحن بالفصحى، وركاكة التعبير بها أو خرق قواعدها يعد عيباً أو عاراً، فحسب اللغة أن تفهم وتؤدي الغرض على أي شكل كان، وبأي ثوب كان⁸.

ويؤكد ذلك تاريخ الفكر الأوربي الذي سيطرت عليه مفاهيم الكنيسة، والتي حصرت العلم والتفكير في رجال الدين، فساد الجهل إلا في القليل ممن نظر للعلم من جهة المآلات بالبحث عن ما وراء الطبيعة، ففسروا الموجودات بنظرة إلحادية، لكونها لا تربط ما يسعى له الإنسان في الحياة بجزء أو عقاب، فكان لابد من تفسير عمل وجهد الإنسان من غير تعب مع استغلال كل لحظة في التمتع بالحياة، فالكُل يحتاج لبعض لكن كل واحد واحد لا "يتعب نفسه في مبادلة إخوانه الحاجات بل يعمل ما يحتاج إليه بذاته لذاته؟"⁹، ومثل هذا الفكر له انعكاساته في اللُّغة، لأن النظر للُّغة بهذه النظرة يُقدم التجريد على اعتبارات ملازمة أو خارجة عن الشيء، ولهذا يدخلون المنطق فيعتبرون "الجملة حكماً منطقياً... واعتبروا طرفي الإسناد النحوي بنفس الطريقة، التي اعتبروا بها الموضوع والمحمول في المنطق"¹⁰؛ "فالدراسات الإغريقية على سعتها، وعمقها لم تخلق للدراسات اللغوية منهجها الخاص."¹¹، فهذه هي أصول التفكير اللغوي اليوناني، والدراسات اللغوية الحديثة هي امتداد لها.

ولهذا فإن فكرة المزج والتداخل بقيت حاضرة في الفكر اللساني الحديث، وهي في موضوع التداولية واضحة بشكل جلي؛ فالتداولية درس عزيز جديد، إلا إنه لا يمتلك حدوداً واضحة... فتقع التداولية أكثر الدروس حيوية في مفترق طرق البحث الفلسفية واللسانية.¹²

-3/2- تعريف التداولية:

-1/3/2- عند الباحثين الغرب:

وعليه لا غرو أن تتعدد تعريفاتها عند مؤسسيها فضلا عن ترجمتها، فهي تحمل مفاهيم عديدة كلها مهمة، فمن غلب مفهوماً على آخر عرّفه بلازمه، وإن أقدم تعريف للسانيات التداولية هو تعريف تشارلز موريس 1938م: إن التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات، وهذا التعريف واسع يتعدى المجال اللساني إلى السيميائي، والمجال الإنساني إلى الحيواني والآلي. ومرجعية هذا التعريف: أنه لا يعدو أن يكون جزءاً من تصور ماهية العلامة في القدم، وماهية العلامة تدخل العاقل وغير العاقل.¹³

لكن العلامة بهذا المفهوم أعم من التداولية، من جهة العلامة تبين العلاقة بين اللفظ والمعنى بدلالة الاستلزام، وبدلالة التضمنين في التداولية.

لأن العلامة تكون خارج ماهية الشيء أو جزء منه، بخلاف العلاقة بين اللفظ والمعنى، تتحدد من خلال التطابق والتضمنين والالتزام، فهي في دلالتها لا تخرج عن حيز اللفظ والمعنى، بينما العلامة تتعدى لما هو خارج من مثل الأثر، كما في قول العرب: "البعرة تدل على البعير"¹⁴، لكننا لا نجد القصدية في العلامة بهذا المفهوم. وبالقسمة العقلية نجد من ثلاثية اللفظ والمعنى والقصد المكونة لمفهوم العلامة، أو الدال والمدلول والقصد: أولاً: الدال والمدلول دون قصد:

- الدال: ما يشير إلى شيء آخر (مثلاً: كلمة أو رقم).
- المدلول: ما نبحت عن الوصول إليه أو فهمه.
- لكن دون قصد: أي بدون وجود نية أو غاية وراء الربط بين الدال والمدلول.

النتيجة:

تكون العلاقة مبهمة أو اعتباطية بدون "قصد"، لا يوجد توجيه للفهم أو تفسير العلاقة. مثال: إذا رأيت رمزاً (الدال) ولم تكن تعرف معناه ولا تقصد شيئاً منه، فلن تصل إلى "المطلوب".

ثانياً: قصد دون دال ومدلول

إذا كان هناك:

- قصد: نية أو هدف أو غاية.
- لكن دون دال ومدلول: أي بدون وسيلة تعبير (كلمة، رمز، إشارة)، وبدون ما يدل عليه.

النتيجة:

يصبح "القصد" معلقاً أو غير مُفصح عنه؛ النية موجودة، لكن لا يوجد ما ينقلها أو يفسرها، فلا يحدث تواصل أو إدراك.

" وهي الإشكالية التي تعد في الفكر السيميائي الحديث، وموضوع نقاش بين اتجاهين: اتجاه يؤكد الطبيعة الإبداعية التواصلية للعامة، ويمثل هذا الاتجاه كل من موان، ومارتين، وبريطو في الفكر السيميائي الفرنسي، وهم يعتقدون أن العلامة تتألف في أساسها من دال ومدلول وقصد؛ واتجاه آخر يركز على الجانب التأويلي للعلامة، أي من حيث إمكانية العلامة للتأويل بالنسبة للمتلقي. ويمثل هذا الاتجاه رولان بارت الفرنسي، وهو اتجاه يوصف بالسيميائية الدلالية.

نجد هذا التصور نفسه للعلامة عند الراغب الأصفهاني، إذ يقول: الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالات الإشارات والرموز والكتابة، وسواء أكان ذلك بقصد من يجعله دلالة، أم لم يكن يقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي.¹⁵

ويستشهد الأصفهاني على تصوره هذا بما ورد في قوله تعالى: [.. ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته] [سبأ: 14]. فالراغب بهذا المفهوم للدلالة يوسع المجال التطبيقي الإجرائي للعلاقة لتشمل أنماطاً سيميائية، هي: (الألفاظ، والإشارات، والرموز، والكتابة، والهيئة).¹⁶

وعليه فإن هذا التعريف مرتبط بالسيميائية التي تنتهي إلى موضوع التأويل¹⁷ الخاص بالمعنى لا محالة، بينما التداولية تهتم بالمعنى من غير ظاهر اللفظ، ومنه فإن السيميائية تتجاوز اللفظ إلى المعنى مثل التداولية، لكنها تراعي المعنى المستفاد من المعرفة السابقة لمتعلقات اللفظ بشرط أن تكون هناك إمارة للربط المتعلق باللفظ واللفظ، بينما التداولية تهتم بالمعنى كذلك لكنها تحدد معنى غير ظاهر من اللفظ، لكن هذا المعنى من ملابسات اللفظ لا متعلقاته، وبهذا تكون بالسيميائية أعم من التداولية؛ لأن التداولية نوع من التأويل.

ولهذا لا بد في علم العلامة سبقاً لتصوير، يظهر في نمطين اجتماع الدال والمدلول والقصد مع سبق تصور؛ فهي تفترض:

• وجود التعبير: حين يُوجد القصد ثم يُصاغ في دال يدل على مدلول.

• ثم يحدث الفهم: عندما يتفاعل المتلقي مع الدال ويستنتج القصد.

ولهذا فقد اقترح رودولف كارناب بعد سنة من ذلك التاريخ أن يدعو علم التخاطب - التداولية - بأنه (حقل البحوث التي تأخذ في اعتبارها نشاط الإنسان الذي يتكلم أو يسمع العلامة اللغوية وحالته ومحيطه،¹⁸ وعليه فالمرجع في هذا التعريف يحصر التداولية في ثوبها اللساني الذي يعتمد البعد الإنساني والاجتماعي والفردية كما عند دوسوسير، فهي تنظر لتلك الأبعاد في الاستعمال وتدوين نتائجها في حقول عدة تتجاوز اللفظ والمعنى إلى الإدراك والإحساس، ويفسر ما ذهب إليه عبد السلام المسدي في مساق حديثه عن العلامة أورد عدة مصطلحات، مثل: الدال والمدلول والدلالة، وقابلها بالعلامة (Signe) عوض (Marque)؛ على أساس أنها العلامة

اللغوية، منتهجاً في ذلك منحى ف. دي. سوسير، ومعتبراً اللغة مجموعة علامات، الواحدة منها تدرك بالحس رؤية وسماعاً أو شمّاً... والأصل في العلامة أن تكون عرفية طبيعية تستوعب كل أنساق الدلالة.¹⁹ ومن تلك التعريفات الواسعة تعريف فرانسواز أرمينكو؛ حيث ترى أن (التداولية تتطرق للغة ظاهرةً خطابيةً وتواصليةً واجتماعيةً معا.

وقد يقتصر الباحث على دراسة المعنى وليس المعنى بمفهومه الدلالي البحث، بل المعنى في سياقه التواصلية، مما يسوغ معه تسمية المعنى بالمتكلم فيعرفها: بأنها دراسة المعنى التواصلية أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله.²⁰

ففي السياق التواصلية، تُفهم المصطلحات (الدال، المطلوب، القصد، المدلول) ضمن عملية إنتاج المعنى بين المتكلم والمخاطب، وهي عملية ديناميكية قائمة على الترميز والتأويل. إليك تفصيلها بترتيب منطقي:

أولاً: الدال والمطلوب دون قصد:

إذا استخدم دال (كلمة، إشارة، صورة...) وتوقع الوصول إلى مطلوب (فهم، استجابة، موقف)، لكن دون قصد من المتكلم:

- تكون الرسالة فارغة من المعنى الحقيقي أو غير مقصودة.
 - المتلقي قد يفسرها خطأ أو يخلق لها تأويلاً ذاتياً.
 - يحدث تشويش في التواصل.
- مثال: شخص يقول "طيب" وهو شارد الذهن؛ لا يعني بها رضا أو رفضاً. المتلقي يختار.

- ثانياً: قصد دون دال ومدلول:

عندما تكون هناك نية للتواصل (قصد)، لكن دون استخدام دال (وسيلة تعبير):

- لا يتحقق التواصل؛ فالمعنى لا ينتقل.
 - القصد يبقى محبوساً في ذهن المتكلم.
 - قد يعتمد على تعبير غير لغوي (نظرة، سكوت)، لكنه سيقى غامضاً.
- مثال: طفل يريد شيئاً لكنه لا يعرف اسمه ولا يشير إليه — القصد موجود، لكن التعبير غائب.

- ثالثاً: الدال، القصد، والمدلول في انسجام: لكي ينجح التواصل:

- الدال: يُستخدم (كلمة/إشارة).
 - القصد: يكون واضحاً ومقصوداً من المرسل.
 - المدلول: يُفهم من قبل المتلقي كما أراده المرسل (أو قريب منه).
- عندها فقط يتحقق "المعنى في سياقه التواصلية".

والخلاصة: المعنى لا ينتج فقط من الكلمات الدوال، بل لابد من:

- القصد (نية المتكلم)
- السياق (الموقف، العلاقة، اللغة)
- تفاعل المتلقي (تفسيره للمدلول)

المعنى في التواصل هو "نتيجة" لا "معطي"

وعليه فمرجع هذا التعريف هو نظرية التواصل عند جاكبسون، حيث وضع نظرية الاتصال التي مفادها أن أي كلام أو قول نتفحصه نجد فيه رسالة تنطلق من مرسل إلى متلقي (مرسل إليه)²¹، لكنه يحصر التداولية في جانب المرسل وقدرته على الإفهام.

أما آن ماري ديلر وفرانسوا ريكاناتي فيعرفان التداولية بأنها : دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية.

وعليه فإن هذا التعريفات لا تراعي درجات الكلام، من تطلب السجع غير المتكلف، والإيجاز غير المخل، والتفريق بين الفصيح والأفصح والعامي، أي اعتبار التداولية تدرس المتداول دون تفريق، وهذا ما حدا بالدكتور كمال بشر إلى انتقاد قصيدة النثر بقوله: في النهاية وأقول: " إن قصيدة النثر تخلت عن صفاء اللغة ومالت إلى ما نسميه التداولية وتخلت عن أناقة التعبير ودخلت في لغة الحياة اليومية، ومالت إلى الانكماش الشديد، وإلى التمدد الشديد نتيجة لاستعانتها بفنون قولية من القصة والمسرحية، وأهم شيء أن قصيدة النثر تخلت نهائياً عن مقولة رومانسية مغرقة وذهبت إلى رومانسيته هي، وهي التجربة، ودخلت فيما أُسميه المواقف والأحوال واللحظة.²²

والخلفية الفكرية لهذا التفريق يخفي وراءه، تأصيلاً للفكر اللغوي عند العرب، تأصيلاً للفكر اللغوي عند اليونان، فالعرب أحسن ما في كلامها الشعر والشعر يحمل في ألفاظه الخيال المتمثل في المجاز العقلي المتأصل في الإسناد، لمانع صارف للمعنى الأصلي، واللغوي المتأصل في الألفاظ نفسها، كما يحمل الموسيقى التي تحمل المعاني بحسب البحر الذي تنتمي إليه، كما يحمل الإيجاز في التعبير عم يعجز غير الشعراء في التعبير عنه رغم إحساسهم به. إما اليونان فأحسن أدبهم المسرح وهو يتطلب فرقة موسيقية، وواضعاً للنص، ومكاناً للعرض، بمعنائه يُتكلف فيه من أجل إيصال فكرة معينة.

وأثر ذلك أن العرب تختار من الألفاظ أجملها، ومن التراكيب أفصحها، ومن المعاني أجزلها، ومن الأفكار أسبكها، ولهذا نجد أنها تفرق بين الفصيح والأفصح، أما غيرهم فيهتم بإيصال المعاني والأفكار بأي لغة، حتى لو كانت عامية.

ولكن كلا الفكرين العربي واليوناني يراعون المقام، الاجتماعي والثقافي، ولهذا نجد في التداولية اقتراباً في مصطلحاتها مع مصطلحات علم البلاغة في التراث العربي، مثل السياق والاستعمال والمقام.

-2/3/2- عند الباحثين العرب: ومنهم

- ومسعود صحراوي عرفها بأنها: (هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي).

كما قد تعرّف من وجهة نظر المتكلم بأنها: "كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجه المرسل عند إنتاج الخطاب، بما في ذلك من استعمال مختلف الجوانب اللغوية، في ضوء عناصر السياق، بما يكفل ضمان التوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده، وتحقيق هدفه. وهو على فكرة تعريف ماري ديلر وفرانسوا ريكاناتي. وكذا صلاح فضل، حيث عرفها بأنها "الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية التي تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل، بشكل عام، وهو بذلك على فكرة تعريف فرانسوا زارمينكو.²³

مصطلحات ومفاهيم التداولية بنظر الباحثين العرب: فالمرجعيات الفكرية والفلسفية للتداولية، تحتم فهم مأخذ الفكر اللساني الحديث وإسقاطه على محتوى الفكر اللغوي القديم: حيث لاحظ اللغويون القدماء حضوره خلال تحليلهم لظواهر لغوية من العربية فانعكس في وصفهم لها بصورة واضحة. وهو ما لاحظته بنفس الوضوح كل مهتم بمنهجية إعادة قراءة التراث اللغوي لمقارنة بمثيله من النظريات اللغوية المعاصرة.

ونجد خير مثال لذلك في الباحثين ممن كانت له نظرة جمعت بين القديم والحديث ومنهم عبد الرحمن الحاج صالح، وذلك في حديثه عن مصطلح الاستعمال بحسب منظور النحاة القدامى؛ فقد ربطه الحاج عبد الرحمن صالح بمنطق الدلالة عموماً الذي مجاله البلاغة،... وعلى هذا فالوضع والاستعمال... الغاية منهما تحقيق الفعل التداولي.²⁴

ولهذا "يجدر بالدارس قبل أن ينظر في مجال انفتاح الدرس الأدبي على المراجع التداولية أن يحدّد دلالة هذا المفهوم الرائج استعماله بين المتخصصين في هذه الأيام؛ فإنّ الخطاب العلمي العربي يستعمل عبارة التداولية منذ عقدين تقريباً، ولكنّ نظائرها في اللغات العالمية تستخدم في الدرس الأدبي وفي تحليل الخطاب وفي الدرس النحوي، وفي علوم الدلالة منذ أكثر من ثمانية عقود (الفرنسية) pragmatic approach والأنقليزية pragmatic approach.²⁵

مفهوم التداولية بين المعاني اللغوية والتقيدات الاصطلاحية:

"ورد في معجم أساس البلاغة للزمخشري "دول": دالت له الدولة، ودالت الأيام، وأدال الله بني فلان من عدوهم، جعل الكثرة لهم عليه... وأدبل المؤمنون على المشركين يوم بدر، وأدبل المشركون على المسلمين يوم

أحد... والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم. وتداولوا الشيء بينهم، والمشي يداول بين قدميه، يراوح بينهما²⁶.

وجاء في لسان العرب لابن منظور: تداولنا الأمر، أخذناه بالدول، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر، ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة، وتداولنا العمل والأمر بيننا، بمعنى تعاورناه فعمل هذا مرة وهذا مرة²⁷.

يُلاحظ أن المعاجم العربية غالبًا ما تحصر دلالات الجذر "دول" في معاني التحول، والتبدل، والانتقال، سواء كان ذلك من مكان إلى آخر، أم من حال إلى حال. وهذه المعاني تقتضي وجود أكثر من طرف يشترك في عملية التحول أو التناقل، وهي سمة جوهرية في اللغة نفسها؛ إذ تنتقل من المتكلم إلى السامع، وتتحول في معناها وسياقها بتداولها بين الناس. ومن هنا، يبدو أن مصطلح "تداولية" (Pragmatics) هو الأنسب والأثبت دلالةً على هذا المعنى، مقارنةً بمصطلحات أخرى مثل "ذرائعية"، أو "نفعية"، أو "سياقية"، لما يحمله من تحذر لغوي ومعنوي في الثقافة العربية.

وعليه عند بحثنا في الجذر "دول" تركز على معاني: (التحول - التبدل - الانتقال - التناقل)، وهذه المعاني تستلزم وجود طرفين أو أكثر، لأن الفعل (التحول أو التناقل) لا يتم في فراغ، بل بين جهتين أو أكثر. فاللغة بطبيعتها، تنطوي على هذا المعنى؛ فهي تنتقل بين المتكلمين، وتتحول من حال لدى المتكلم إلى حال لدى السامع، وبناءً على ذلك، فإن مصطلح "تداولية" (pragmatics) يحمل في طياته هذا البعد اللغوي العربي الأصيل، ويُعبر بدقة عن دينامية اللغة وتفاعليتها؛ ومن هنا، فإن "تداولية" تُعد أدق وأثبت دلالةً من البدائل الأخرى مثل: ((الذرائعية) من (pragmatism) - النفعية. - السياقية.))

ولعل هذا الثبوت لمصطلح التداولية هو الذي جعل الباحث المغربي طه عبد الرحمان يستحدث مفهوم "المجال التداولي" في ترجمته لمصطلح pragmatique، يقول في توصيفه للفعل "تداول": تداول الناس كذا بينهم، يفيد معنى تناقله الناس وأداروه بينهم، ومن المعروف أيضا أن مفهوم النقل والدوران مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة، كما هما مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة، فيقال: "نقل الكلام عن قائله" بمعنى رواه عنه، ويقال دار على الألسن بمعنى جرى عليها، فالنقل والدوران يدلان في استخدامهما اللغوي على معنى التواصل وفي استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين، فيكون التداول جامعا بين اثنين هما: التواصل والتفاعل.²⁸

ومن الملاحظ التنوع في التعريفات التداولية ولعل ذلك يرجع إلى:

1- تداخل التداولية وكثير من العلوم؛ إذ إن جملة من العلوم قد أسهمت في تشكيل هذا الاتجاه، فهو اتجاه قد تعددت روافده المعرفية التي أمدته بجملة من المفاهيم المستقرة فيها، كالفلسفة التحليلية التي نشأت التداولية في كنفها وعلم الدلالة وعلم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي وغيرها.

2- تنوع النظريات التي تشكلت داخل الاتجاه التداولي، مما جعل الباحث داخل إحدى هذه النظريات يوجه التداولية نحو النظرية التي ينطلق منها²⁹.

وعليه مفهوم التداولية بين الإطلاق اللغوي والمقيدات الاصطلاحية يُعد موضوعاً مهماً في فلسفة اللغة واللسانيات المعاصرة، ويتناول التوتر القائم بين الفهم العام (أو الإطلاق اللغوي) لمصطلح "التداولية" والاستعمالات الاصطلاحية الدقيقة التي وضعتها المدارس اللسانية والفلسفية.

أولاً: التداولية من حيث الإطلاق اللغوي

في الإطلاق العام، التداولية (Pragmatics) تُفهم على أنها:

- كل ما يتعلق باستخدام اللغة في السياقات التواصلية.
 - دراسة كيفية تأثر المعنى بالمقام (السياق)، ونيات المتكلمين، والظروف المحيطة بالكلام.
 - تشمل ظواهر مثل: التلميح، الافتراض، أفعال الكلام، التهذيب اللغوي، وغيرها.
- بهذا المفهوم، تصبح التداولية مفهوماً واسعاً يشمل كل ما لا يمكن تفسيره فقط من خلال قواعد النحو أو المعجم.
- ثانياً: التداولية في ضوء المقيدات الاصطلاحية:

المقيدات الاصطلاحية (أي التحديدات الاصطلاحية أو التقييدات المفهومية)، والتي تسعى إلى ضبط المفهوم وتحديد نطاقه ضمن إطار علمي دقيق. وهنا نجد مدارس ومناهج متعددة، مثل:

- مدرسة أوستن وسييرل: حددت التداولية ضمن إطار "أفعال الكلام".
 - مدرسة غرايس: ربطت التداولية بمبدأ التعاون والضمنيات.
 - مدرسة ليتش وبراون ولوينسون: ربطوها باستراتيجيات التأدب والسلوك اللغوي الاجتماعي.
 - مدرسة الفرنسية: (Ducrot, Anscombre) ركزت على البُعد الحوارية والتداولية للنص.
- هذه التحديدات تُعد بمثابة "مبيدات اصطلاحية"، لأنها تُبعد التداولية عن معناها الواسع لتجعلها علماً دقيقاً له أدوات ومفاهيمه.

والخلاصة: أنه يمكن القول إن التداولية تقع في منطقة توازن دقيقة بين:

- كونها علماً وصفيّاً دقيقاً له منهجيات محددة.
 - وكونها أداة لفهم التفاعل البشري واللغوي في أوسع معانيه.
- و لصياغة تعريف يجمع بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لمصطلح التداولية (Pragmatics)، يمكننا القول:

التداولية في اللغة مأخوذة من "تداول"، أي التناقل والتبادل، ويُقال: تداول القوم الحديث أي تبادلوه بينهم. أما اصطلاحاً، فالتداولية هي فرع من فروع اللسانيات يدرس المعنى في السياق، أي كيف يُستخدم الكلام في مواقف التواصل المختلفة، وكيف يؤثر السياق على تفسير اللغة، مع التركيز على نية المتكلم وتوقعات المتلقي. وعليه يُمكن وضع تعريف جامع: التداولية هي دراسة اللغة في ضوء الاستعمال، تجمع بين مفهومها اللغوي المتصل بالتبادل والتناقل، وبين معناها الاصطلاحي الذي يعنى بكيفية تأثر المعنى بالسياق والمقام ونيات المتكلمين في عملية التفاعل اللغوي.

-3/3/2- المرجعية الفكرية للتداولية بين الفكر العربي والغربي:

لا شك أن السبق كان لظهور التداولية في الدراسات الغربية علماً جامعاً بين عدة فروع من علوم، لكن هذا لا يعني عدم تطرق البحث العربي له، من قريب أو بعيد، إلا أن فكرة وجود النص الفصيح والمثالي حصر بحث التداولية في زوايا من علوم البلاغة وعلوم تفسير القرآن وعلم أصول الفقه بشكل بارز، لا نكاد نجد له مثيلاً حتى في الدراسات الغربية، وعليه فالتداولية في الدراسات الحديثة تعمم البحث في مجال البحث في الخطاب الثقافي والاجتماعي والسياسي، وحتى الأدب الشعبي، أي المستعمل من الكلام بأي شكل، وفي أي قالب.

-1/3/3/2- إبراز أهمية سبق علماء أعلام التراث العربي في مجال الدرس التداولي؛ تأصيلاً وتفعيلاً.

- إن لقضية النظر في قضايا اللفظ والمعنى من جهة ما يستفاد منه الحكم بعد الفهم للنص، يثبت الأسبقية لعلماء أصول الفقه في علم الدلالة، فالتداولية في جانب تحديد مراد المتكلم من خلال السياق وفحوى الخطاب، الذي يتجاوز به الألفاظ إلى معنى خفي، وعليه فالتداولية في إثبات وجودها في البحث اللغوي القديم يحتم بيان مبحثين، الأول: ملامح الفكر التداولي من خلال فهم السياق، والثاني:

-2/3/3/2- ملامح الفكر التداولي من خلال فهم السياق:

يظهر من خلال تتبعنا معنى كلمة «السِّيَاق context» في المعاجم اللُّغَوِيَّة العامة أن نجد أنها تشير إلى معنيين:

-أ- معنى عام يشمل اللُّغة وغيرها:

تقول بعض هذه المعاجم: إنَّ السِّيَاق هو «البيئة أو الظروف أو الحقائق والوقائع المحيطة التي تساعد على إعطاء صورة شاملة عن شيء ما»، أو «تؤثر على شيء ما». أو إنَّه:

«الموقف الذي فيه يحدث شيء ما، أو الذي يتسبَّب في حدوث شيء ما».

ب ومعنى خاص مرتبط بالُّغة:

والمعنى الثاني الذي تعطيه المعاجم اللُّغَوِيَّة العامة وبعض المعاجم المتخصصة هو معنى مرتبط بالُّغة خاصة، فتقول:

إنَّه «سياق الكلام».³⁰

وبهذا يتبين لنا مأخذ بعض الباحثين للتداولية من جهة السياق كـ فرومكين حيث حدّدها بكونها: الدراسة العامة لكيفية تأثير السياق في الطريقة التي نفسر بها الجمل، ويقصد بالسياق في مثل هذه المواضع مفهومه الواسع الذي يشمل - علاوة على ملابسات الموقف - كل ما له تأثير في الحدث اللغوي من عوامل حالية أو ماضوية، كما عُرف أيضا بأنه دراسة استخدام اللغة، وعلاقته ببنية اللغة والسياق الاجتماعي.

وقد تعرّف انطلاقاً من اهتمام الباحث "بتحديد مراجع الألفاظ وأثرها في الخطاب، ومنها الإشارات، بما في ذلك من طرفي الخطاب، وبيان دورهما في تكوين الخطاب، ومعناه، وقوته الإنجازية.

وهناك من الباحثين من ينطلق في تحديد مفهوم التداولية من عدة جهات كـ جورج يول الذي يرى أن التداولية تختص بدراسة المعنى من جهة المتكلم والسامع والسياق والعوامل المادية والاجتماعية.³¹ وبار هيلل عرف التداولية بأنها: دراسة الارتباط الضروري لعملية التواصل في اللغة الطبيعية بالمتكلم والسامع بالمقام اللغوي والمقام غير اللغوي " ووافقه جورج يول على هذا التعريف وأضاف إليه ارتباط التداولية " بوجود معرفة أساسية، وبسرعة استحضار تلك المعرفة الأساسية وبحسن إدارة المسهمين في عملية التواصل.

وهناك من الباحثين من نظر في التداولية إلى كونها مستوى جديداً من مستويات اللغة متنوع المعطيات؛ فيرى أنها " مستوى حاسم على صعيد تحديد الدلالة وفهم تحولاتها وتغيّراتها... حيث تتوجه فيه الدراسات اللسانية إلى العناية بأثر التفاعل الخطابي في موقف الخطاب، ويستطيع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، لاسيما المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق..

وتشمل هذه المعطيات معتقدات المتكلم، ومقاصده، وشخصيته، وتكوينه الثقافي، ومن يشارك في الحدث اللغوي، والوقائع الخارجية، ومن بينها الظروف المكانية والزمانية، والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة، فضلاً عن المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، وأثر النص الكلامي فيها.

وقد أطلق عليها مصطلح " المجال التداولي " ويوضحه كذلك بقوله " وقصدنا به: كل المقتضيات العقدية والمعرفية واللغوية - القريب منها والبعيد - المشتركة بين المتكلم والمخاطب والمقومة لاستعمال المتكلم لقول من الأقوال بوجه من الوجوه.³²

ولهذا يرى كثير من المعاصرين أن مسألة السياق أو المقام كما عرفه العرب القدماء تمثل بؤرة علم الدلالة الوصفي؛ لأنه يعبر باختصار عن الجانب الاجتماعي للمعنى والوظيفة التداولية والنفعية للغة في حياة الإنسان، وفي هذين الجانبين تظهر الأحداث والعلاقات والقرائن التي تسود ساعة أداء المقال. الحقيقة أن الجهل بهذه الظروف لا يمكن من الوصول إلى المعنى على الإطلاق، لذلك قال ستيفن أولمان: " لا يمكن الاستمرار في بحث تاريخ الكلمات منعزلاً عن تاريخ الحضارة ". وما تاريخ الحضارة إلا أحداث اجتماعية ربطت مقالات معينة ببعضها البعض، وأنزلتها

في مسار الأحداث المتصلة؛ وتظهر قيمة السياق في دراسة المعنى ضمن تحديد المعاني المتعاقبة على اللفظ الواحد بسبب الاشتراك أو تغير دلالة الكلمة عبر الزمن.³³

والمصطلحات التي تعبر عن السياق غير اللغوي أو سياق الحال كثيرة، ويمكن أن نقسم هذه المصطلحات إلى قسمين:

. مصطلحات تراثية: ومنها: الحال و مقتضى الحال و واقع الحال ...

مصطلحات حديثة: مصطلح السياق نفسه والسياق غير اللغوي،، وسياق الموقف، و السياق الاجتماعي والثقافي.³⁴

ومنها أيضا هذا المصطلح الحديث نسبيا هو التداولية Pragmatics: وهو مصطلح يتناول بالدراسة منطقة تتنازعها علوم ثلاثة: علم الدلالة Semantics، وعلم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics، وعلم سياق الحال (Extralinguistic context). ينظر David Crystal، A Dictionary Of Linguistics And Phonetics, P.379 وهو ((دراسة اللغة لا بوصفها نظاما أو بنية بل على نحو ما تستعمل في المواقف الاتصالية المختلفة: واقعية أو متخيلة.³⁵

وعليه فإن الفكر التداولي هو مجال من مجالات دراسة اللغة التي تركز على كيفية تفاعل الأفراد مع اللغة في سياقات اجتماعية معينة. يختلف عن الدراسات اللغوية التقليدية التي تركز عادة على قواعد اللغة أو المعنى الثابت للكلمات. الفكر التداولي يرتبط بشكل وثيق بكيفية فهم المتحدث والمستمع للرسائل اللغوية بناءً على السياق الذي تحدث فيه. وتظهر ملامح الفكر التداولي من خلال فهم عدة سياقات:

1. السياق الاجتماعي والثقافي:

السياق الاجتماعي والثقافي هو أحد الملامح الأساسية في الفكر التداولي. ففهم لغة شخص ما يتطلب الإلمام بالثقافة التي ينتمي إليها هذا الشخص، كما أن التفسير يختلف باختلاف المكان والزمان. على سبيل المثال، كلمة معينة قد تحمل معاني مختلفة في ثقافات مختلفة، وتفسير العبارة قد يختلف بناءً على خلفية المستمع أو المتحدث.

2. السياق النصي:

السياق النصي هو الجزء الذي يتعامل مع معنى الكلمات في الجمل أو النصوص. يتعين على المتحدث والمستمع أخذ السياق النصي في عين الاعتبار لفهم المعنى الكامل. في كثير من الأحيان، لا يمكن فهم كلمة أو جملة بدون النظر إلى ما سبق أو ما سيأتي بعدها.

عادات وتقاليد، مما يؤكد ضرورة المعرفة التامة بأسباب النزول، وأخبار العرب وحياتهم العقلية والروحية والاجتماعية بصفة عامة، وهكذا تمتد قرينة السياق على مساحة واسعة من الركائز تبدأ باللغة، وتنتهي بهذه القرائن المتعددة. وملخصه أن التداولية تراعي جوانب فهم النص إذا خرج عن أصل وضعه إلى معنى مراد يفهم من النص يستفيد منه المتعاملون بذلك النص الذي لا يخرج عن احتمالات رسمت من السير والتقسيم والاستقراء لما في ذلك النص؛ ويُتفق عليه حصراً ويعود إليه القارئون للنص، لكن الخلاف يقع في فهم ما خرج عن الأصل في الوضع اللغوي لما اتفق عليه بالاستقراء، فالتداولية الحلقة المحدد للسياق المبين للخروج عن الأصل، ويأتي تحديد الحكم الخارج عن الأصل حسب تقدير السياق، والذي يعتمد على النص نفسه، أو نصوص تفسره، أو قاعدة كلية تبناه انطلاقاً من نصرة لمذهبه، سواء كانت قاعدة كلية فقهية أو كلامية أو منطقية أو أصولية؛ أو غيرها من علوم الوسائل.

وأحسن أمثلته مما يمكن أن تضبط السياق الاجتماعي عند العرب في فهم القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم.

فالتداولية (Pragmatics) هي فرع من فروع اللسانيات الذي يهتم بدراسة كيفية استخدام اللغة في السياقات الاجتماعية، أي كيف أن معنى الجمل يتأثر بالظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية التي يتم استخدامها فيها. هذا يتضمن فحص علاقة اللغة بالمتحدثين والمستمعين، والقرارات التي يتخذها المتحدث لتوجيه رسالته بشكل مناسب للسياق.

أما "الخطاب القرآني" فهو يتعلق بكيفية استخدام اللغة في القرآن الكريم لإيصال الرسائل الإلهية للمؤمنين. فالقرآن الكريم لا يُقرأ فقط باعتباره نصاً دينياً، بل أيضاً باعتباره نصاً لغوياً يتم فيه استخدام العديد من الأساليب البلاغية والتداولية لإيصال المعاني بشكل فعال ومتعدد الأبعاد.

والتداولية في الخطاب القرآني قد تتجلى في عدة جوانب، ومنها:

1- السياق والمقام:

في القرآن الكريم، السياق والمقام لهما دور كبير في تحديد معنى الآيات. على سبيل المثال، قد تحمل الآية معنيين مختلفين بحسب السياق الذي وردت فيه. فالمعنى لا يُفهم فقط من الكلمات نفسها، بل من كيفية ومكان استخدامها.

2- الأفعال الكلامية:

يتضمن القرآن الكريم العديد من الأفعال الكلامية مثل: الطلب، الوعيد، الوعد، التوبيخ، والإخبار. جميع هذه الأفعال تُستخدم لتحقيق أغراض مختلفة وتوجهات معينة بحسب السياق. على سبيل المثال، عندما يُستخدم فعل "قل" أو "قل لهم"، فإن ذلك يوجه الخطاب بشكل مباشر إلى المتلقين.

-3- التلميحات والمجاز:

القرآن الكريم يحتوي على العديد من التلميحات والمجازات التي يتم فهمها ضمن السياق الذي وردت فيه. هذه المجازات والتلميحات قد تحمل معاني عميقة تتجاوز المعنى الظاهر، وهذا يتطلب فهماً تداولياً للآيات.

-4- الاستراتيجيات البلاغية:

القرآن الكريم يعتمد على أساليب بلاغية مثل التكرار، التقديم والتأخير، والتضاد لتحقيق تأثيرات معينة على المستمع. هذه الأساليب تُستخدم لضمان وصول الرسالة بفعالية. فالتكرار مثلاً يُستخدم لتأكيد فكرة معينة أو لتذكير المتلقيين برسالة هامة.

-5- الخطاب في التفاعل:

القرآن الكريم لا يتوجه إلى المستمعين فقط كجمهور سلبي يتلقى الرسالة، بل هو خطاب تفاعلي يثير الأسئلة، الاستفسارات، والتحديات. نرى في كثير من الأحيان خطاباً موجهاً للناس ليعيدوا التفكير في أفكارهم وسلوكياتهم. يُعطى المستمعون فرصاً للتفاعل مع النص وفهمه بشكل أعمق.

-6- الإحالة والمراجع: القرآن يستخدم الإحالة إلى أحداث تاريخية أو شخصيات معروفة للمستمعين في ذلك الزمان. هذه الإحالات تُعتبر أسلوباً تداولياً لأن المستمعين يفهمون الرسالة بناءً على معرفتهم السابقة بهذه الأحداث والشخصيات.

-7- النزعة الخطابية الشمولية:

القرآن الكريم يتبنى خطاباً شاملاً يناسب كافة الأوقات والبيئات، وهذا يظهر في مرونة الخطاب وتعدد المعاني التي يمكن استخلاصها من نفس الآية في سياقات مختلفة. وبالتالي، يعتبر الخطاب القرآني من أكثر الخطابات تداولية ومرونة عبر الزمن.

بعض ملامح وتطبيقات التداولية في خطاب القرآني:

ب/1- مباحث مفهوم المخالفة، وأنه معتبر بشرط ألا يخرج النص مخرج الغالب؛ لأن مفهوم المخالفة يعني معنى اللفظ لا في محل النطق³⁶، وله صور تحدد شروط العمل به منها:

أولاً: ألا يكون للقيّد الذي قيد به النص فائدة أخرى غير إثبات خلاف حكم المنطوق للمسكوت، ... أمثلة ذلك قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً] [آل عمران: 130] فوصف الربا بكونه "أضْعَافًا مُضَاعَفَةً" إن جاء للتنفير مما شاع لكثرة عند أهل الجاهلية، وعلى هذا فأصل الربا محرم، كثيراً كان أو قليلاً، بدليل قوله تعالى: [وَأَحْلَلْ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ...] [البقرة: 275].

ثانياً: ألا يكون قد خرج مخرج الغالب، كما في قوله تعالى، في شأن المحرمات من النساء: [وَرَبَّائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم ...] [النساء 23] ، فإن الغالب كون الرِّبَائِي فِي حُجُورِكُمُ الْأَزْوَاجِ؛ بدليل أن

الله - تعالى - قيد تحريم بنت الزوجة بالدخول بالأهتات، والحل بعدم الدخول، فلو كانت الزببة حراماً؛ لوجودها في حجر الزوج فقط، لما كان للتعليل بالدخول معنى.

ثالثاً: أن يكون الكلام الذي ذكر فيه القيد مستقلاً؛ فلو ذكر على وجه التبعية لشيء آخر فلا يكون حجة. ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: [وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ...] [البقرة: 187]؛ فإن تقييد كون الاعتكاف في المساجد لا مفهوم له؛ لأن المعتكف ممنوع من مباشرة زوجته مطلقاً، والاعتكاف لا يكون إلا في المساجد، فلا يكون هذا المفهوم حجة.

أهمية المخالفة في التداولية:

• الدلالات التفسيرية:

المخالفة تسهم في توسيع نطاق الفهم للأدلة الشرعية، حيث يُسمح للفقهاء والمجتهدين بالاستدلال بمقارنة النصوص وتحديد الحدود بين الحالات المتشابهة والمخالفة.

• الاجتهاد الفقهي:

المخالفة تساعد في توجيه الاجتهاد الفقهي في حالات جديدة لم يتم تناولها بشكل مباشر في النصوص.

• تقوية الحجة:

في بعض الحالات، المخالفة تُستخدم كأداة لتقوية الحجة الفقهية، حيث يتم تقديم الأدلة التي تتناقض مع الرأي المخالف بشكل منطقي ومدعوم بأدلة من النصوص الشرعية.

-ب/2- مباحث اعتبار العرف: إذا ورد لفظ من الشارع وله مقتضى في وضع اللسان ولكن عم في عرف أهل الزمان استعمال ذلك اللفظ على خصوص في بعض المسميات:.

فالذي رآه الشافعي: أن عرف المخاطبين لا يُوجد تخصيص لفظ الشارع.

وقال أبو حنيفة: العرف من المخصصات وهو مغن عن التأويل والمطالبة بالدليل.

وضرب العلماء لذلك مثالا وهو: نهي عليه السلام عن بيع الطعام بالطعام فزعم بعض أصحاب أبي حنيفة: أن الطعام في العرف موضوع للبر وحاولوا حمل الطعام في لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما جرى العرف فيه.

وهذا الذي ادعوه من العرف ممنوع وهم غير مساعدين عليه، ولو قدّر ذلك مُسلماً لهم بمجرد العرف فمجرد العرف لا يقتضي تخصيصاً؛ فإن القضايا متلقاة من الألفاظ وتواضع الناس عبارات لا يغير وضع اللغات ومقتضى العبارات ... فالشرع وصاحبه كيف يلزمهم حكم تواضع المتعاملين وقد خاطب المصطفى بشريعة العربية الأعاجم على اختلاف لغاتها على تقدير أن يسعوا في درك معاني الألفاظ التي خوطبوا بها.³⁷

وعليه ففكر التداولية موجود في معالجة جوانب فهم النص إذا خرج عن أصل وضعه إلى معنى مراد يفهم من النص يستفيده المتعاملون بذلك النص الذي لا يخرج عن احتمالات رسمت من السبر والتقسيم والاستقراء لما في ذلك النص؛ يُتَّفَق عليه حصراً يعود إليه القارئون للنص، لكن الخلاف يقع في فهم ما خرج عن الأصل في الوضع اللغوي لما اتفق عليه بالاستقراء، فالتداولية الحلقة المحدد للسياق المبين للخروج عن الأصل، وبأقبي تحديد الحكم الخارج عن الأصل حسب تقدير السياق، والذي يعتمد على النص نفسه، أو نصوص تفسره، أو قاعدة كلية تتبناه انطلاقاً من نصرة لمذهبه، سواء أكانت قاعدة كلية فقهية أم كلامية أم منطقية أو أصولية؛ أو غيرها من علوم الوسائل.

وعليه فإن التداولية والحقيقة العرفية موضوعان يرتبطان ارتباطاً وثيقاً في الفلسفة اللغوية، خصوصاً في سياق تحليل المعنى والاستخدام.

أولاً: التداولية (Pragmatics)

التداولية هي فرع من فروع اللسانيات يهتم بدراسة استخدام اللغة في السياقات الواقعية. بمعنى آخر، تهتم التداولية بكيفية تفسير المعنى بالنظر إلى:

- السياق الاجتماعي أو الثقافي،
 - نوايا المتكلم،
 - معرفة الخلفية المشتركة بين المتكلم والمستمع.
- من أشهر مفاهيم التداولية:

- الافتراضات المسبقة (Presuppositions)
- المعاني الضمنية (Implicatures) مثل تلك التي تحدث في نظرية غرايس (Grice's maxims)
- أفعال الكلام (Speech Acts) مثل الأمر، الطلب، السؤال، الوعد،...

ثانياً: الحقيقة العرفية (Conventional Truth)

الحقيقة العرفية تشير إلى نوع من الحقائق التي تُقبل على أساس الاتفاق الاجتماعي أو العرف الثقافي، لا على أساس الضرورة المنطقية أو العلمية.

مثال: القول بأن "الدينار هو العملة الرسمية في الجزائر" هو حقيقة عرفية لأنها قد تتغير بتغير العرف أو النظام، بخلاف "المثلث له ثلاث زوايا" وهي حقيقة منطقية.

العلاقة بين التداولية والحقيقة العرفية:

- التداولية تعتمد على السياق والعرف لفهم المعنى، وبالتالي فهي تفترض وجود حقائق عرفية يتشاركها المتكلم والمستمع.
- كثير من المعاني الضمنية في اللغة لا يمكن فهمها دون الإحالة إلى حقائق عرفية (ثقافية أو اجتماعية).
- على سبيل المثال، إذا قال أحدهم "المدير قادم"، فقد يُفهم ضمناً "ارتدّ ملابسك الرسمية" بسبب عرف متفق عليه ضمناً في بيئة العمل.

-4/3/2- علاقة التداولية بالعلوم اللغوية وغير اللغوية:

ويظهر في أن " للدراسات اللغوية الحديثة اهتماما خاصا بدراسة المعنى، يقويه ويدعمه أن المعنى في نظر الدراسات صدى من أصداء الاعتراف باللغة ظاهرة اجتماعية، ونتيجة لتشابك العوامل المختلفة في إطار سياق الثقافة الشعبية من عادات وتقاليده وفلكلور وأغانٍ ومناهج عمل وطرق معيشة وهلم جرا، فاللغة أداة اجتماعية يوجدها المجتمع للرمز إلى عناصر معيشته وطرق سلوكه، ولذا يحدد طرق هذه اللغة واستعمالاتها، ويضعها موضع الظاهرة الاجتماعية، فيصدق عليها ما يصدق على كل ظاهرة اجتماعية أخرى من الخضوع لظروف التعارف وللتصويب والتخطئة بحسب هذا التعارف، ولقد كانت العناية بهذا الجانب الاجتماعي للغة سبباً في اعتبار "المقال" عنصراً واحداً من عناصر الدلالة لا يكشف إلا عن جزء من المعنى الدلالي، وينقصه أن يستعين بالمقام الاجتماعي الذي ورد فيه المقال حتى يصبح المعنى مفهوماً في إطار الثقافة الاجتماعية، أو بعبارة أخرى: ثقافة المجتمع؛ ومن هنا أيضاً دعت الحاجة المنهجية إلى تشقيق المعنى إلى ثلاثة معانٍ فرعية، أحدها: المعنى الوظيفي، وهو وظيفة الجزئي التحليلي في النظام أو في السياق على حد سواء. والثاني: المعنى المعجمي للكلمة، وكلاهما متعدد ومحتل خارج السياق، وواحد فقط في السياق، والثالث: المعنى الاجتماعي أو معنى المقام، وهو أشمل من سابقه، ويتصل بهما على طريق المكامنة؛ لأنه يشملهما ليكون بهما وبالمقام معبراً عن معنى السياق في إطار الحياة الاجتماعية على نحو ما سنرى بعد قليل. وهذا التشقيق هو ما أسهمت به الدراسات اللغوية الحديثة في محاولة الكشف عن المعنى اللغوي.³⁸

وتقدم أنها تستعمل معظم مصطلحاتها من معجم علم البلاغة، كم نجد في كثير في كافة المستويات اللغوية كلٌّ بحسبه:

-في المستوى اللغوي:

نجد "السياق هو الذي يعين أحد المعاني المشتركة للفظ الواحد، وهذا السياق لا يقوم على كلمة تنفرد وحدها في الذهن، وإنما يقوم على تركيب يوجد الارتباط بين أجزاء الجملة، فيخلع على اللفظ المعنى المناسب، وعلى هذا لا يجد الباحث كبير عناء في فهم لفظ "الغروب" يتردد ثلاث مرات في ثلاثة أبيات على قافية واحدة يستوي لفظها ويختلف معناها:

يَا وَيْحَ قَلْبِي مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى ... إِذْ رَحَلَ الْجِيرَانُ عِنْدَ الْغُرُوبِ.

أَتَبَعْتُهُمْ طَرَفِي وَقَدْ أَزْمَعُوا ... وَدَمَعُ عَيْنِي كَفَيْضِ الْغُرُوبِ.

كَأَنُّوا وَفِيهِمْ طِفْلَةٌ حُرَّةٌ ... تَفْتَرَعْنَ مِثْلَ أَقَاجِي الْغُرُوبِ.

فليس متعذراً أن يفهم من وحي السياق أن الغروب الأول: غروب الشمس؛ والثاني جمع غرب: وهو الدلو العظيمة المملوءة، والثالث جمع غرب: وهو الوهاد المنخفضة.

إن في المشترك لتنوعاً في المعاني بسبب تنوع الاستعمال، وإن في اشتغال العربية على قدر لا يستهان به من الألفاظ التي تنوع استعمالها بتنوع السياق -للدلالة على سعتها في التعبير عن طريق الاشتراك كسعتها فيه عن طريق الترادف.³⁹

ومن أمثلته تصحيح خطأ قولهم "سيوفر فرص عمل لعدد يتراوح بين 400 ألف ونصف مليون بني آدم". فاستعمال لفظ "بني آدم" في هذا السياق يخالف ما يسميه علماء الدلالة "المعنى الأسلوبي" وذلك عن طريق عدم مراعاته "رتبة اللغة المستخدمة" ونوعها، ولو أنه وضع كلمة "شخص" مكان "بني آدم" لكان أليق بالمقام.⁴⁰

- المستوى الصرفي:

قد يحدث أحياناً أن تتشابه صيغتان في النظام مع اختلاف معناهما، فحين لا نجد اختلافاً بينهما نلجأ إلى القرائن نستبين بها معنى كلٍّ منهما. ومثال الذي يبين عدم الاكتفاء بالسياق في تحديد المعنى بل لابد من الاستعانة بالمقام، وذلك من خلال تأمل العبارات التالية:

نحن نخطب قعوداً أو وقوفاً مصدر قعد ووقف، أو جمع قاعد وواقف.

نحن نخطب قياماً أو جلوساً، مصدر قام وجلس، أو جمع قائم وجالس.

نحن نريد حلولاً مصدر حلَّ يَحُلُّ أو جمع حلّ.

نحن ننشد حضوراً مصدر حضر أو جمع حاضر.

وفي هذه الحالة بالذات لا نستطيع حتى بمعونة هذا السياق أن نصل إلى معنى الكلمة بل الصيغة، ومن هنا يصبح الرجوع إلى المقام وهو منبع القرائن الحالية أمراً لا غنى عنه، فبالمقام نعلم ما إذا كانت هذه الكلمات مصادر أو جموعاً.⁴¹

فالمقام إذن هو كلّ العناصر الخارجيّة التي تحيط بالكلام وتشارك السياق اللغوي في تكوين المعنى الدلالي. ويبدو أنه "كلما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً كان المعنى الدلالي أكثر وضوحاً، لذلك فإن غياب المقام يؤثر في فهم الكلام، فيجعله يحتمل غير معنى.⁴²

- المستوى النحوي:

قد تتشعب القواعد وتمتد، فتتجاوز عناصر الأنماط التركيبية، لتشمل معطيات السياق، فيقال مثلاً: " متى
أمكن حمل الكلام على غير إضمار مع صحة المعنى كان أولى من حملة على الإضمار " ، و"الضمير لا يعود على
غير الأقرب إلا بدليل" ، وغير ذلك.⁴³

العلاقة بين التداولية والنحو

هنا تبرز التداولية من خلال المستوى النحوي، أي أن المتكلم يستخدم قواعد النحو لأغراض تداولية. هذه بعض
الأمثلة لتوضيح ذلك:

1. أسلوب التقديم والتأخير لخدمة أغراض تداولية:

- المثال: "إياك نعبد وإياك نستعين".
- التفسير النحوي: تقدم المفعول به (إياك) لغرض بلاغي.
- التفسير التداولي: التركيز على المعبود، أي أن المتكلم يريد إبراز الإخلاص الكامل لله.

2. الضمائر والإحالة:

- "جاء محمد. هو صديقي".
- التداولية تهتم بكيفية فهم "هو" اعتماداً على السياق والنحو يوفر وسيلة الربط.

3. الاستفهام لغرض غير حقيقي (استفهام بلاغي):

- "أليس الله بأحكم الحاكمين؟"
- من حيث النحو: استفهام.
- من حيث التداولية: ليس للسؤال عن الحقيقة، بل للتأكيد.

4. الجمل الخبرية لأغراض إنشائية (أداء أفعال كلامية):

- "أعلنُ انتهاء الجلسة".
- نحويًا: جملة خبرية.
- تداوليًا: هي فعل كلامي يؤدي فعل الإعلان.

5. الحذف والذكر لتحقيق الإيجاز أو التأكيد:

- "قال: نعم".
- من الناحية النحوية: محذوف الفاعل والفعل.
- تداوليًا: يُفهم من السياق أنه ردّ على سؤال ما.

فالتداولية من خلال المستوى النحوي تبرز في كيفية توظيف البنى النحوية لأداء وظائف تواصلية، مثل
التأكيد، التهديد، التوبيخ، المدح... إلخ، ويتغير المعنى باختلاف السياق، رغم ثبات الشكل النحوي أحيانًا.

- المستوى البلاغي:

ومثاله جناس الإضمار: وهو أن يأتي بلفظ يحضر في ذهنك لفظاً آخر وذلك اللفظ المحضر يراد به غير معناه، بدلالة السياق - كقوله:

«منعم» الجسم تحكى الماء رقتة وقلبه «قسوة» يحكى ابا أوس

(وأوس) شاعر مشهور من شعراء العرب، واسم أبيه حجر، فلفظ أبي «أوس» يحضر في الذهن اسمه، وهو (حجر)، وهو غير مراد، وإنما المراد: الحجر المعلوم.⁴⁴

تقاطعات التداولية مع البلاغة:

يتمثل في أن التداولية تساعدنا على فهم الدلالة البلاغية في سياقها الحقيقي. فالكثير من الظواهر البلاغية لا تُفهم إلا من خلال السياق والنوايا، وهذا هو مجال التداولية.

أمثلة توضيحية:

• الاستعارة:

- بلاغيًا: "الليل يزحف ببطء" استعارة.
- تداوليًا: نفهم أن القصد ليس حركة فعلية بل دلالة على الظلمة والهدوء وربما الرهبة، وهذا يتطلب خلفية سياقية.

• السخرية:

- شخص يقول: "يا للروعة، الكهرباء انقطعت مجددًا!"
- بلاغيًا: هذا أسلوب تهكمي.
- تداوليًا: نفهم المعنى الحقيقي عكسيًا للسياق الظاهري اعتمادًا على التبرة والسياق.

• الكناية:

- بلاغيًا: "فلان طويل اللسان".
- تداوليًا: يُفهم المعنى (الوقاحة أو الجرأة في الكلام) من خلال معرفة السياق والنية.

المستوى الصوتي:

ومثاله في مبحث النبر وذلك أن الاعتبار الإيقاعي في نبر السياق الاستعمالي أوضح منه في نبر النظام الصربي؛ لأن نبر النظام الصوتي نبر الكلمة المفردة والصيغة المفردة، والكلمة ربما قصرت بحيث لا تشتمل إلا على مقطع واحد منبور فلا تتَّسِم بِسَمَةِ الإيقاع، وأما السياق الاستعمالي فإنه يحرص على إظهار موسيقي اللغة بحفظ المسافات المتساوية أو المتناسبة بين مواقع النبر، مما يعطي اللغة موسيقاها الخاصة التي تعرف بها بين اللغات، وإن

مجرد الاستماع إلى شخص أجنبي يتكلم العربية فيطيل الحركة ويقصر المد ويضع النبر في غير موضعه ليكشف عن قيمة النبر والكمية في تكوين موسيقى اللغة.

ولا شك أن الإيقاع إذا كان يعطي للغة موسيقاها الخاصة فإنه لا يحدد معنى وظيفياً ولا معجمياً ولا دلاليّاً في السياق الكلامي.⁴⁵

العلاقة بين التداولية والمستوى الصوتي:

الصوتيات تلعب دوراً مهماً في فهم المعاني التداولية، ومن أبرز الجوانب التي تتقاطع فيها التداولية مع الصوت ما يلي:

1. النبر: (Accentuation)

رفع الصوت على كلمة معينة يغيّر من معناها التداولي. مثلاً:

- "هو فعل ذلك" "نبرة على ذلك" تعني التأكيد على الفعل تحديداً.
- "هو فعل ذلك!" (تأكيد على من قام بالفعل).

2. التنغيم: (Intonation)

يمكن لنغمة الجملة أن تغيّر دلالتها:

- جملة "ذهبت إلى السوق؟" بنغمة صاعدة = سؤال.
- "ذهبت إلى السوق." بنغمة هابطة = تقرير.

3. الصمت والتوقف: (Pauses and Silences)

التوقفات أثناء الحديث قد تُستخدم لتوصيل رسالة معينة (تردد، رفض، تفكير...).

4. الإيقاع: (Rhythm)

يساعد على تنظيم الكلام وتوجيه انتباه المستمع إلى عناصر معينة في الخطاب.

5. الصوت في السياقات البلاغية والخطابية:

مثل استخدام الصوت للإقناع، أو للتعبير عن موقف اجتماعي أو سلطة أو تحكم أو غضب.

-5/3/2- مباحث تداولية في الدرس العربي والغربي:

وتظهر في العلاقة بين السياق اللغوي العربي والسياق الفلسفي: "لأن" الخطاب الفلسفي كي يكون وظيفياً، يحقق الغاية التداولية لا بد من أن تكون ألفاظه شائعة، ولتكون كذلك لا بد لها من أن تتسم بسمّة الوضوح والجلاء على مستوى المصطلح، وهو مفرد أو على مستوى العبارة بأن تكون بسيطة خالية من التعقيد، على الطريقة العربية في بنائها للجملة النحوية، بمعنى أن يتوفر على سمّي الاتساق والانسجام. ... ومن ثم يؤرخ لتطور المصطلح الفلسفي بعامة والمنطقي بخاصة في الحضارة الإسلامية، ابتداء من تلك الرسائل الموضوعية في

الحدود، والتي تمثل بواكير التأليف المعجمي للمصطلح الفلسفي، إلى الأعمال الناضجة التي قدمها الفارابي وابن سينا والغزالي والشريف والجرجاني والصفوي وغيرهم من أعلام الفلسفة الإسلامية؛ لأن هناك ملامح تشابه بين كتاب التقريب لابن حزم ومعيان العلم في فن المنطق للغزالي، والألفاظ المستعملة في المنطق للفارابي ورسالة الحدود لابن سينا، يقف عليها المقارن بين مناهج التفكير عند هؤلاء الأعلام الذين تختلف مجالات اهتمامهم.⁴⁶

-3- الخاتمة:

بعد التتبع لقضايا المرجعية الفكرية للتداولية توصلنا إلى النتائج التالية:

- أن التداولية علم يتجاوز الدلالة اللفظية، ويبحث في ملابسات النص سواء تعلقت بالسياق اللغوي أم تجاوزته إلى السياق الثقافي والمقام والحال.
- التداولية في الدرس العربي القديم ارتبطت بفروع علوم، مثل البلاغة والتفسير وأصول الفقه.
- أقرب مصطلح التداولية يشمل مفهومها هو مصطلح الاستعمال؛ بمعنى المستعمل في الخطاب ليشمل المقام والحال والفصيح وغير الفصيح.
- التداولية في الدرس الغربي ارتبطت بالفكر اليوناني؛ لجمعها بين العلوم اللسانية والفلسفة.
- التداولية مجال واسع في الدراسات اللغوية يساعد على حل إشكالات معرفة مذهب المؤلف وطريقة طرحه، ومنهل كبير لتطويع علم مقاصد اللغة فرعاً من علم أصول النحو، وهو فرح يحتاج إلى بحث وتمحيص.
- جذور التداولية في التراث هو موضوع مهم يربط بين مفهوم التداولية أو "Pragmatics" وبين التراث الثقافي والحضاري. التداولية في اللغة تشير إلى دراسة كيفية استخدام اللغة في سياقاتها الواقعية، وكيف تؤثر عوامل مثل السياق الاجتماعي، الثقافي، والموقف في فهم المعاني. إذا تحدثنا عن جذور التداولية في التراث، فنحن نتحدث عن كيفية تفاعل اللغة والمفاهيم الثقافية في المجتمعات عبر الزمن.
- بعض الجوانب التي يمكن النظر إليها عند الحديث عن جذور التداولية في التراث: البلاغة العربية (المعاني، البيان، البديع)، علم أصول الفقه (العام والخاص، المجمل والمبين، المقاصد)، علم النحو (نظرية العامل، السياق، نية المتكلم)، المنطق والكلام (قضايا الحجاج والبرهنة).
- جذور التداولية في التراث العربي ليست مقتصرة على استخدام اللغة فقط، بل تتعداها إلى فهم أعمق لكيفية تأثير السياق الاجتماعي، الثقافي، والتاريخي في فهم المعنى. يمكننا القول أن التداولية كانت جزءاً لا يتجزأ من التراث، مما يجعل فهم النصوص التراثية يتطلب أكثر من مجرد معرفة لغوية، بل يتطلب إدراكاً عميقاً للسياق الذي أنتج فيه النص فنجدها في :

- الخطاب الأدبي والثقافي: في الأدب العربي التقليدي، مثل الشعر والنثر، كانت اللغة تستخدم بطريقة مرنة وفقاً للسياقات الاجتماعية والثقافية. فالشعراء كانوا يستخدمون البلاغة والرمزية للتواصل مع جمهورهم بناءً على الوضع الثقافي والديني والسياسي. أمثلة مثل استخدام المجاز في الأدب العربي القديم تظهر كيف كانت اللغة تعتمد على السياق لفهم المعنى.
- الخطاب الديني: النصوص الدينية مثل القرآن الكريم والحديث الشريف لا تقتصر فقط على معاني ظاهرية. هناك تأويلات وتفسيرات متعددة تعتمد بشكل كبير على السياق الاجتماعي والزمني. تفسير النصوص الدينية كان دائماً يتطلب معرفة عميقة بالسياق التداولي، مثل حال الناس والظروف التي كانوا يعيشون فيها، لفهم المعنى الكامل لهذه النصوص.
- الخطاب السياسي والاجتماعي: في التراث العربي، كان للخطاب السياسي دور كبير في تشكيل المجتمعات. تصريحات الحكام، القادة، والعلماء كانت تتأثر بشكل كبير بالسياق الاجتماعي والسياسي. كانت هذه التصريحات تُستخدم لتحقيق أهداف محددة، وكان فهمها يتطلب وعياً بالسياق السياسي والاجتماعي الذي تنتمي إليه.
- الحديث الشعبي والحكمة: في التراث الشعبي، تتنوع الأمثال والحكم التي تعكس الواقع الاجتماعي والمواقف اليومية. هذه الأمثال تعتمد على السياق الثقافي وتعبّر عن قيم وأعراف المجتمع. فهم هذه الأمثال يتطلب معرفة بالقيم الاجتماعية والمفاهيم التي كانت سائدة في ذلك الزمان.
- اللغويات التاريخية والتفاعل بين الثقافات: التراث العربي لم يكن معزولاً عن التأثيرات الثقافية الخارجية، خاصة مع العصور الذهبية التي شهدت التفاعل بين العرب والفرس والهنود وغيرهم. قد نجد في هذا التراث ملامح من اللغة والتداولية التي تأثرت بهذه الثقافات.

الهوامش:

¹ فلسفة اللغة، مبحث فلسفي لغوي حديث. دراسة في النشأة والمفهوم والإشكالات، صويلح هشام، الناشر: مجلة: مجلة المقرى للدراسات اللغوية النظرية و التطبيقية، تاريخ النشر: 31-21-2020، المجلد: 3، العدد: 2، ص: 171.

² يُنظر: معجم أعلام المورد، البعلبكي، منير، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة الأولى -، تاريخ النشر: 1992. ص. 274.

³ تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند راسل، ترجمة: عبد الكريم ناصف، الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق سوريا -، تاريخ النشر: 2020، ص: 78.

⁴ فلاسفة يونانيون من طاليس إلى سقراط، جعفر آل ياسين، الناشر: دار ومكتبة البصائر بيروت - لبنان، تاريخ النشر: الأولى - 2012 - ص: 41.

⁵ المصدر نفسه : ص: 66

⁶ يُنظر: برتراند رسل: «تاريخ الفلسفة الغربية»، ص ٥٥. ويراجع: فلاسفة يونانيون من طاليس إلى سقراط، جعفر آل ياسين، الناشر: دار ومكتبة البصائر بيروت - لبنان، تاريخ النشر: الأولى - 2012 - ص: 84/83.

⁷ البحث اللغوي عند العرب؛ أحمد مختار عبد الحميد عمر، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الثامنة 2003، عدد الأجزاء: 1، ص: 61.

⁸ خطر اللسانيات الحديثة، أبو محارب نقلا عنوليد قصاب، ملتقى أهل اللغة لعلوم اللغة العربية - الحلقات - حلقة فقه اللغة ومعانيها، تاريخ: 2008/12/22، الساعة: 10:44، PM، رابط

الموقع: [https://www.ahlalloghah.com/showthread.php?t=1126]

⁹ يُنظر: جمهورية أفلاطون، الترجمة العربية حنا خباز، الناشر: دار التراث - بيروت - ، تاريخ النشر: 1969، ص: 60.

¹⁰ يُنظر: مناهج البحث في اللغة؛ تمام حسان، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، عدد الأجزاء: 1، ص: 15/14. "خذ مثلاً من كلامه في مقولة الكم: ويقال نفس الشيء عن الكلام، فمن الواضح أن الكلام ذو كمية؛ لأنه يقاس بالمقاطع الطوال والقصار، وأقصد بذلك الكلام المنطوق ... وهو يقول: إن الاسم لا يوصف بالصدق، أو الكذب إلا إذا أسند ويضرب لذلك مثلاً بكلمة "وعل"، فهي لا توصف بأي الصفتين، إلا إذا أضيف إليها فعل، وواضح أن الصدق والكذب ليس من الدراسات اللغوية؛ وإنما هو من الدراسات المنطقية، فالحجج التي يحلل العبارة الكاذبة، كما يحلل العبارة الصادقة، ولا يهمه منها إلا التحليل اللغوي، ولا يهم النحوي من قول الشاعر: يزيد جمال وجهك كل يوم، إن كانت هذه الشطرة صادقة أم كاذبة، وإنما يعنيه منها أن يحللها تحليلًا لغويًا لا أكثر ولا أقل، ... أما الجملة فهي الكلام المفيد الذي لبعض أجزائه معان مستقلة، باعتبارها ألفاظاً لا اعتبارها أحكاماً إيجابية. فالجملة في نظر أرسطو إذا حكم منطقي، ولكنها في نظر الدراسات اللغوية الحديثة ليست كذلك."

¹¹ المصدر نفسه: ص: 15/14.

¹² التداولية بين المفهوم والتصور؛ مُستل من رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم اللغة بعنوان (الأبعاد التداولية في تفسير البحر المحيط)، مقدم من الباحث: أحمد سالم عوض حسان،. إشراف: أ. د. محي الدين محسب أستاذ العلوم اللغوية والعميد الأسبق لكلية دار العلوم جامعة المنيا. رابط الموضوع: (https://www.alukah.net/sharia/0/126538/)

¹³ يُنظر: كتاب التعريفات؛ علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى 1403 هـ - 1983 م، ص: 107.

¹⁴ ذكره ابن الجوزي في "زاد المسير" 1/ 362، ولم ينسبه لأحد.

¹⁵ المفردات في غريب القرآن؛ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ، ص: 316.

¹⁶ مصطفى الفاسي، العلامة وطبيعتها في التراث العربي، أرشيف ملتقى الحديث 1، بتاريخ: [10 - 10 - 04، 02:16 م]، تم تحميله في: المحرم 1432 هـ = ديسمبر 2010 م، هذا الجزء يضم: المنتدى الشرعي العام، الجزء: 36، صفحة: 173، رابط الموضوع: رابط الموقع:

http://www.ahlalhdeth.com

¹⁷ ينظر؛ مصطفى الفاسي، العلامة وطبيعتها في التراث العربي، أرشيف ملتقى الحديث 1، بتاريخ: [10 - 10 - 04، 02:16 م]، تم تحميله في: المحرم 1432 هـ = ديسمبر 2010 م، هذا الجزء يضم: المنتدى الشرعي العام، الجزء: 36، صفحة: 175، رابط الموضوع: رابط الموقع:

http://www.ahlalhdeth.com

¹⁸ التداولية بين المفهوم والتصور؛ مُستل من رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم اللغة بعنوان (الأبعاد التداولية في تفسير البحر المحيط)، مقدم من الباحث: أحمد سالم عوض حسان،. إشراف: أ. د. محي الدين محسب أستاذ العلوم اللغوية والعميد الأسبق لكلية دار العلوم جامعة المنيا. رابط الموضوع: (https://www.alukah.net/sharia/0/126538/)

¹⁹ مصطلحات النقد العربي السيماءوي الإشكالية والأصول والامتداد؛ مولاي علي بوخاتم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004/2003، دمشق - 2005.

- ²⁰ نظراً؛ اللسانيات النشأة والتطور؛ أحمد مومن، الناشر ديوان المطبوعات الجامعية - الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر، الطبعة الثانية: 2007، ص: 149/148.
- ²¹ ينظر؛ اللسانيات النشأة والتطور؛ أحمد مومن، الناشر ديوان المطبوعات الجامعية - الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر، الطبعة الثانية: 2007، ص: 149/148.
- ²² قضايا الشعر المعاصر من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة الندوة الثانية (1)،: "قضايا الشعر المعاصر"، "قصيدة النثر"، مقرر اللجنة الثقافية: الأستاذ الدكتور كمال محمد بشر، مدير الندوة: الأستاذ الدكتور محمود علي مكي، المتحدثون: الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي، الأستاذ الدكتور عز الدين إسماعيل، الأستاذ الدكتور محمد عبد المطلب، ج: 7، ص: 10.
- ²³ قضايا الشعر المعاصر من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة الندوة الثانية (1)،: "قضايا الشعر المعاصر"، "قصيدة النثر"، مقرر اللجنة الثقافية: الأستاذ الدكتور كمال محمد بشر، مدير الندوة: الأستاذ الدكتور محمود علي مكي، المتحدثون: الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي، الأستاذ الدكتور عز الدين إسماعيل، الأستاذ الدكتور محمد عبد المطلب، ج: 7، ص: 10.
- ²⁴ الوضع والاستعمال عند عبد الرحمن الحاج صالح من خلاله كتاب "الخطاب والتخاطب"، فتيحة لعلاوي، جامعة الجزائر 2 الجزائر، الناشر مجلة: اللسانيات المجلد -25- العدد: 1، ص: 258/257.
- ²⁵ ملتقى أهل اللغة، تم تحميله في: رمضان 1435 هـ = يوليو 2014 م، رابط الموقع: <http://ahlalloghah.com>، باب: ما هذه المناهج، ج: 2، ص: 139.
- ²⁶ أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ص: 1/303.
- ²⁷ لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، 11/252، مادة "دول"
- ²⁸ المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، الناشر: المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء المغرب، تاريخ النشر: بدون، - الطبعة الثانية -، ص: 244.
- ²⁹ التداولية بين المفهوم والتصور؛ مُستل من رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم اللغة بعنوان (الأبعاد التداولية في تفسير البحر المحيط)، مقدم من الباحث: أحمد سالم عوض حسان، إشراف: أ. د. محي الدين محسب أستاذ العلوم اللغوية والعميد الأسبق لكلية دار العلوم جامعة المنيا. رابط الموضوع: (<https://www.alukah.net/sharia/0/126538/>)
- ³⁰ قرينة السياق ودورها في التععيد النحوي والتوجيه الإعرابي في كتاب سيبويه، إعداد الطالب: إيهاب عبد الحميد عبد الصادق سلامة، رسالة: دكتوراة، قسم اللغة العربية، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس
- إشراف: الأستاذة الدكتورة: أميرة أحمد يوسف (أستاذ النحو والصرف)، الأستاذة الدكتورة: حسنة الزهار (أستاذ علم اللغة)، عام النشر: 2016 م، ص: 32 إلى 36.
- ³¹ فمن جهة المتكلم تهتم "بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم) أو الكاتب (ويفسره المستمع) أو القارئ (لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة. التداولية دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم. ومن جهة السامع تدرس "الكيفية التي يصوغ من خلالها المستمعون استدلالاً حول ما يقال للوصول إلى تفسير المعنى الذي يقصده المتكلم... التداولية هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال"، ومن جهة السياق تتضمن "تفسير ما يعنيه الناس في سياق معين وكيفية تأثير السياق فيما يقال... والتمعن في الآلية التي ينظم من خلالها المتكلمون ما يريدون قوله وفقاً لهوية الذي يتكلمون إليه وأين ومتى وتحت أي ظروف. التداولية هي دراسة المعنى السياقي"، ومن جهة العوامل المادية والاجتماعية "ينطوي القرب المادي أو الاجتماعي أو المفاهيمي على خبرة مشتركة حيث يحدد المتكلمون مقدار ما يحتاجون قوله بناء على افتراض قرب المستمع أو بعده. التداولية هي دراسة التعبير عن التباعد النسبي" هذه هي المجالات الأربعة التي تهتم التداولية بدراستها. ينظر؛ التداولية بين المفهوم والتصور.

- ³² ينظر؛ التداولية بين المفهوم والتصور؛ مُستل من رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم اللغة بعنوان (الأبعاد التداولية في تفسير البحر المحيط)، مقدم من الباحث: أحمد سالم عوض حسان، إشراف: أ. د. محي الدين محسب أستاذ العلوم اللغوية والعميد الأسبق لكلية دار العلوم جامعة المنيا. رابط الموضوع: (<https://www.alukah.net/sharia/0/126538/>)
- ³³ النظرية اللسانية، عند ابن حزم الأندلسي، [قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني وأبعاده المعرفية]، نعمان بوقرة - الجزائر، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق - 2004، ص: 55.
- ³⁴ قرينة السياق ودورها في التقعيد النحوي والتوجيه الإعرابي في كتاب سيبويه، إعداد الطالب: إيهاب عبد الحميد عبد الصادق سلامة، رسالة: دكتوراة، قسم اللغة العربية، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس
- إشراف: الأستاذة الدكتورة: أميرة أحمد يوسف (أستاذ النحو والصرف)، الأستاذة الدكتورة: حسنة الزهار (أستاذ علم اللغة)، عام النشر: 2016 م، ص: 32 إلى 36.
- ³⁵ قرينة السياق ودورها في التقعيد النحوي والتوجيه الإعرابي في كتاب سيبويه، إعداد الطالب: إيهاب عبد الحميد عبد الصادق سلامة، رسالة: دكتوراة، قسم اللغة العربية، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس
- إشراف: الأستاذة الدكتورة: أميرة أحمد يوسف (أستاذ النحو والصرف)، الأستاذة الدكتورة: حسنة الزهار (أستاذ علم اللغة)، عام النشر: 2016 م، ص: 32 إلى 36.
- ³⁶ ينظر؛ الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ / 1974 م، عدد الأجزاء: 4، ص: 2/139.
- ³⁷ ينظر؛ البرهان في أصول الفقه؛ عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: 478هـ)، المحقق: صلاح بن محمد بن عويضة الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى 1418 هـ - 1997 م، عدد الأجزاء: 2، ص: 165/166.
- ³⁸ اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان عمر، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الخامسة 1427هـ-2006م، عدد الأجزاء: 1، ص: 29/28.
- ³⁹ دراسات في فقه اللغة؛ د. صبحي إبراهيم الصالح (المتوفى: 1407هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الطبعة الأولى 1379هـ - 1960م، عدد الأجزاء: 1، ص: 308.
- ⁴⁰ أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين؛ أحمد مختار عبد الحميد عمر، الناشر: عالم الكتب، عدد الأجزاء: 1، ص: 190.
- ⁴¹ اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان عمر، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الخامسة 1427هـ-2006م، عدد الأجزاء: 1، ص: 151/150/149/148/147.
- ⁴² أسباب التعدد في التحليل النحوي؛ محمود حسن الجاسم، جامعة حلب - كلية الآداب - قسم اللغة العربية، المحقق: *، الناشر: *، الطبعة: *، ص: 117.
- ⁴³ أسباب التعدد في التحليل النحوي؛ محمود حسن الجاسم، جامعة حلب - كلية الآداب - قسم اللغة العربية، المحقق: *، الناشر: *، الطبعة: *، ص: 97.
- ⁴⁴ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع؛ أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: 1362هـ)، ضبط وتديق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، عدد الأجزاء: 1، ص: 330.
- ⁴⁵ اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان عمر، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الخامسة 1427هـ-2006م، عدد الأجزاء: 1، ص: 307.
- ⁴⁶ النظرية اللسانية، عند ابن حزم الأندلسي، [قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني وأبعاده المعرفية]، نعمان بوقرة - الجزائر، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق - 2004، ص: 70.